د. صالح فايد - جامعة المسيلة - الجزائر

عقدة نركسوس (نرجس) لجيرار جينيت
Complexe de Narcisse

لا يُشكّلُ موضوعُ نركسوس شيأً ذا جوْهرٍ بسيطٍ لدى شِعْرية الباروك: بل على العكْس، يُعبِّرُ عمّا يُسمّيه غاستون باشلار (Gaston Bachelard) في أيّامِنا هذِه عُقْدة الثقافة، أيْن يتزاوجُ دافِعانِ غامِضان هُما: دافِع الارْتِشاح ودافِع الانْعِكاس. فتِلْكم الصورة التي تُشيرُ لنفْس الذّات، والتي انْحنَى نركسوس لمُشاهدتِها، لا تجدُ في تشابُهِها الأمْن الكافي. إنّ الأمر لا يتعلّقُ بالظِّل المُسْتقر لمرآة هيروديا(01) (Hérodiade)، النّافورة الشتْوِيّة الجدْباء.

ماءٌ باردٌ مِن شدّة الملل في إطارِكالمُتجمّد،

Eau froide par l'ennui dans ton cadre gelée،

هي تِلكم صورةٌ آبقة، صورة مُرْتشحَة، لأنَّ العُنْصر الذي يَحْويها ويُشكّلها (الماء)، آيلٌ هو نفسُه أساساً إلى الغيْبوبة. ولأنّ الماء هو مكانُ كلّ الخُتورات والتقلُبات: ففي الانْعِكاس الذي منَحهُ إياه الماء، لمْ يسْتطِعْ نركسوس التّعرُف على نفْسِه من دونِ انْزِعاجٍ، ولا أنْ يُحبَّ ذاتَهُ من دونِ أخْطارٍ.

يُظْهِرُ الانْعِكاسُ، في حدِّ ذاتِه، موْضوعاً مُبْهماً: الانْعِكاسُ عِبارة عن ضِعْف، أيْ هُو في الوقْتِ نفْسِه الآخر والذّات. فبالنِّسْبة للتفْكير الباروك، تلْعبُ هذِه الازْدِواجيّة دوْرَ عاكِسٍ للْمَعاني، الشّيئُ الذي مِنْ شأْنِه جَعْل الشّخْصيّة خُرافِيّة (أنا هو الآخَر) وجعْل الاخْتِلاف مُطمْئِناً (يوجدُ عالَمٌ آخَر، لكِنّه شَبيهٌ بالعالَم الحالي). يُصْبِحُ الاقْرارُ هُنا نَمَطاً من أنماطِ التضْليل، تماماً كما هو الشّأْن لدى الكاتب روترو (Rotrou)، عِنْدما "الْتَقى أمفيتريون Amphitryon بنفْسِهِ"(02) في صُورة الإله جوبيتر Jupiter:

بالْكاد أعْرِفُ نفْسي وسطَ هذه الفوْضى العارِمة:
مُتعَرِّفاً إلى ذاتي (أمفيتريون) في صورتِه (جوبيتر) (03)...

À peine me connais-je en ce désordre extrême:
Me rencontrant en lui، je me cherche en moi-même...

وهكذا، فلا تبْدو على شمْسِ تريستان ليرميت (Tristan l'Hermite) أقلّ دهْشةٍ حينَ حُلولِها على مِرْآة الماء:

(في) كلِّ صباح (عِنْدما يطْلعُ) نجْمُ العالَم (الشّمسُ)
عِنْد بُزوغِهِ وهُو ينْعكِسُ على الموجة
مُعْتقِداً بِكلِّ دهْشةٍ رُؤْيةَ شمْسٍ أُخْرى(04)...

Tous les matins l'astre du monde
Lorsqu'il se lève en se mirant dans l'onde
Pense tout étonné voir un autre Soleil.

يُعتبرُ الوهْمُ، لدى الشاعِر سانت آمون (Saint-Amont)، صورةً سارِية المفْعول، فلا يظْهرُ أنّ نرسيس هُو فقطْ المُنْخدِع الوحيد:

حتى أنّه يلزمُ (للمُشاهِد) بعضَ الوقتِ لمعرفةِ
ما إذا كانت هي (الشمس التي تُرى فِعلاً) أو صورتَها،
وفي الواقع، يبْدو لأعْيُنِنا
أنّها سقطتْ من السماء.

Qu'on est quelque temps à savoir
Si ç'est lui-même ou son image،
Et d'abord il semble à nos yeux
Qu'il s'est laissé tomber des cieux.

فعلى حدٍّ سواء، يُعبّرُ الانعِكاس على هويّةً مُؤكّدة (بواسِطة الادْراك) وعلى هويّة مسْروقةٍ، أي مُتنازَعٍ عليْها (من طرفِ الصّوُرة نفْسها): لأنّ تفْسيراً بسيطاً يُجْدي لِكيْ ينْزلِق التأمُل النرْجسيّ الفِعْليّ على نحْوِ سِحْرٍ يصيرُ فيهِ النموذجُ، تارِكاً كُلّ علامات الوُجود لِصورتِه، وهو بِنفْسهِ فارِغاً تدْريجيّاً. فحالةُ الريبة التّي تنْتابُ المُشاهِدَ، هِي نفْسُها الحالة التي أصابتْ Sosie، جاعِلة إياهُ في غيْرِ صورته، وهِي أيْضاً نفسُ الحالة التي جعلتْ أمفيتريون يقول:

أشُكُّ منْ أكُون، أنا ضائِع، أنا أجْهلُ نفْسي،
أنا بالذّات أنْسى نفْسي ولا أعْرِفُها البتّة (05).

Je doute qui je suis ،je me perds، je m'ignore،
Moi-mêmeje m'oublie et ne me connais plus.

يتبيّنُ لنا هُنا تأْكيد الأنا، لكنْ يرْتسِمُ هذا التأكيد تحْتَ ضوْءِ أجْناسِ الآخر: فالصّورة المُطابقة للأصْل تُعبِّرُ عنْ رمْزٍ مصْقولٍ للضياع.

تجمَّد نرْكسوس في سكونٍ غيْر مُستقِر وهُو أسيرٌ لِصورتِهِ، لأنّهُ يدْري أنّه تحْت رحْمةِ أدْنى انْحِراف، كما يدْري أنّه قدْ يُحطِّمُ ذاتَه عن طريقِ إزالة انْعِكاسِه، الذي ما هُو سِوى تبعِيّة مُمْتقَعة:

يا إلاهي!(لا أرى سِوى)فِتَن أخَّاذَة،
(سِوى) قَرْنُفُلٌ، زَنابِق ووُرودْ،
(سِوى) صفاءٌ وأشياءَ ودودْ (أشْياء لطيفة)
تدوسُها أمريل (Amarelle) وهِي تنْحرِفُ بخُطوَة (06)!

O Dieux ! que de charmants appas،
Que d'œillets، de lys et de roses،
Que de clartés et que d'aimables choses
Amarylle détruit en s'écartant d'un pas !

وهكذا، فلا تزالُ المِرْآة نفْسها بلا حراكٍ: إذْ، وللحِفاظِ على تِلْكُم الصُّورة، يعْتمِدُ الأمرُ فقطْ على أمريل(Amarelle)، وذلِك بامْتِناعِها عن أيّ حركة. لكن، كان ينْبوع نركسوس أقلّ أمْناً مِن هذا، لكوْنِه على أُهْبةٍ دائمةٍ لاسْتِعادة الصّورة التي يُفْترضُ أنْ يمْنحها إياه، وِفْق مزاجه الغيْر مُتوَقّع. وهُنا يتجلّى لنا موضوع الارْتشاح، عبْر ثلاثةِ أصْنافٍ مادِيّة، مُتمايزةٍ ومُتكاملة.

النوعُ الأول شكْليٌّ محْضٌ، وإنْ أمْكنَ القوْلُ، فهُو ساكِنٌ: هادِئٌ جِداً، نائِمٌ كما يبْدو؛ يمْكِنُ الشُعوربسطْحِ الماءِ في هذا الصنْف بمُجرّد سُقوطِ زهْرةٍ، أو عُبورِ طائِرٍ، أو اضْطِرابات النّسيم: حتّى وإنْ كان هذا النسيم راكِداً. ففي هذا النوْع،

يترنّحُ سطْحُ الماء، وتتماوجُ معهُ صورة نركسوس، مُنْعِشةً تقاطيعَهُ في غاية المُحاكاة والإيماء، فتُضخِّمُها وتُمطِّطُها تارةً، وتُقلِّصُها وتشُدّها تارةً أخْرى، ليكْشِف سطْحُ الماء عن مُرونةٍ مُشْجِية. إلاّ أنهُ تبْقى هذهِ الصّورة المُرْتعِشة مُجرَّد صورة، قدْ تكونُ حركتُها الحرّة أكْثرَ إيحاءًمن الجُمودِ الثّابتِ للْمِرْآة. لكنْ،ومع تزايُد الارْتِعاش، وكذا التّموّجُ الذي يُصْبِح وميضاً، يؤولُ هذا الارتِعاشُ إلى تجزُّؤاتٍ وتشْتيت، حيْثُ ينْقسِمُ التّمددُ المُسْتمرُّ للموْجةِ إلى عددٍ لا حصْر لهُ من الأوْجُه المُتجاوِرة، وحيْثُ يخْتفي نركسوس في تقطُّعٍ مُخيِّبٍ للآمال.

الأمْواجُ المطْليّةُ (باللّون) الأخْضر
التّي تبْدو (كَ) يَشْبٍ (07) منْحوت
تخْتلِسُ وجْهَهُ (صورة وجْه نركسوس)
وعبْر هزّاتٍ صغيرةٍ
عِوضَ أنْ تُظْهرَ(الأمْواجُ) صورتَه
(فإنّها تُظْهر) آلاف الأطْراف مِن الماس(08)

Les flots de vert émaillés
Qui semblent de jaspe taillés
S'entre-dérobent son visage
Et par de petits tremblements
Font voir ail lieu de son image
Mille pointes de diamant.

لكنَّ المياه الجارية، تِلْكُم المياه المُحبّذة لدى العصْر الباروك، تمْنحُنا موْضوعاً آخر للارْتِشاح (النوعُ الثاني)، أقلّ وُضوحاً، لكنْ رُبّما أكْثر إثارةً للْقلق، وذلِك بسبب اخْتِراق الانعِكاس دونَ تحلُّلِه: لا يتعلّقُ الأمْر بإتْلاف أو بتشْتيتٍ شكْليّ،

بلْ يتعلّق أساساً بتلاشٍ جوْهريّ؛ فبغضّ النظر عن الاسْتِقْرار النّسْبي في ملامِحه، تتدرجُ صُورة نركسوس ضِمْن المواد المُتسرِبة، لأنَ نسيج الصّورة ذاتهُ ينْفلِتُ ويخْتفي دون سُكون، عبْر انْزِلاقٍ مُتواصِلٍ، غيْر محْسوسٍ على وجْه التقْريب. فإذا ما تدفّق الانْعِكاسُ مع الماء الذي يحْمِلهُ، فسَيسْتلقي عليْه على الأقلّ، وسينْجُمُ عن هذِه الوضْعيّة تعايُشٌ غيْر ثابتٍ ولكنّهُ ملْموسٌ، تماماً كالورقةِ التي يجْرفُها التيّار. لكنْ، أيُّ رمْزٍ جلِيّ ذلِكم المُتعلق بالتقلّب والتناقُضِ كصُورة ذلِك الوجْهِ المنْسوجِ بلا حَراكٍ على السّيلان ذاتِه؟

النوعُ الثالثُ من الارْتشاح هُو صنفٌ مجازي؛ فبالنّسبة للمُخيّلة الشّعرية، يُعْتبرُ هذا الصنْفُ أكْثرَ الأنواعِ ترْويعاً، إذْ يُعبّرُ بالتأكيد عن أعْمق الفرضِيات المُتعلّقة بالعُنْصر السّائِل: وهو بالضبْط، الارْتشاح العموديّ، أو الارتِشاح في العُمق. إذْ تنْجُمُ هُوّةٌ عن سطْحِ الماء الأكْثرِ بساطة: فإذا ما كان سطْحُ الماء هذا شفّافاً، فإنّه يسْمحُ برُؤيتِه (أي برُؤية نركسوس)، وإذا ما كان عاتِماً، فإنّه يبْديهِ أكْثرَ خطورةً منْ أنْ يُخْفيه. يُمثّلُ الظُّهور على السّطْح تحدِّياً للْعُمقِ، بيْنما ينْجُم عن الطَّفاوةِ خطرُ الغرقِ. إنّ الخاتِمة التّي تُهدِّد الانْعِكاس على الماء، والتّي تُعْرِبُ عن وُجودِه المُتناقِض، هِي الموْتُ قبْل الابْتِلاع أو الالْتِهام، حيثُ تغْرقُ الصّورة المُتهوِّرة في ذاتِ عُمقِها: الخطرُ الذّي تحجَّجَ به تريستان، مُتغزِّلاً في مُتنزّه العاشقيْن Le Promenoir des Deux Amants:

أرْتجِفُ عندَ رُؤية وجْهك
(وهُو) يطْفو برِفْقة رغباتي
(فَ) لطالما اجْتباني الخوفُ (أن تكونَ) تهْيداتي
(هِي) السببُ في غرقِك
(لذى)، خوْفًا منْ المُجازفة
(فَ) لا ترْتكِب هذا طوْعاً
لأنَّ ذلك خادِعاً
لجميع الكُنوز المألُوفة (كنوز الطبيعة)

Je tremble en voyant ton visage

Flotter avecque mes désirs

Tant j'ai de peur que mes soupirs

Ne luifassent faire naufrage.

De crainte de cette aventure

Ne commets pas si librement

A cet infidèle élément

Tous les trésors de la Nature.

هكذا تظْهرُ عُقْدة نركسوس للْعصْر الباروك: ارْتمى نركسوس، مُتنازِلاً عن ذاتِه، وسطَ انْعِكاسٍ أَفْشى له عنْ كلّ حقيقتِه في صورة شبَح، في صورةِ ظلٍّ، في صورة حُلمٍ، سالِباً (09) إياهُ وجودهُ الوهْمي الخاطِف.

ظِلّ هذهِ الزّهرة القِرْمزيّة (اللّوْن)
وكذا (ظِلّ)الأَسَل (10) المُتدليّة
تبْدو أنّها هُنا في الداخِل
أحلامُ المِياه التي تغْفو

L'ombre de cette fleur vermeille

Et celle de ces joncs pendants

Paraissent être là dedans

Les songes de l'eau qui sommeille.

في (البيئة) الرّعوية، ولأجْل معْرِفة الحقيقة عن الأشْخاص الذين يُحِبّونهم، يُظْهر السّاحِر الذي يتوجَّهُ إليْه الناسُ تِلْك الحقيقة عبر مِرآة، وهي تُمثّلُ آداة انْتِقاء

المعْرِفة السّحْريّة. في رِواية L'Astrée (11)، أصْبحت المِرْآة نافورَة، نافورَة حقيقة الحبّ، أيْن ينْعكِسُ وجْهُ المحْبوبة الغائِبة: حيثُ تكْشِفُ المِرآة المائيّة عن الحُضور المُسْتتِرين (الغيْر مرْئيين)، عن المشاعِر الخفيّة وعن أسْرار النُّفوس. تسوقُ هذه المِرآة، بامْتِياز، بواسِطة ميزة التناقُض، التأمّل لدى الباروك، فيما يتعلّقُ بارْتِشاح الزّمن وعدم الاسْتِقْرار البشري. في الكِتاب الرابع من رِواية L'Astrée، تأْتي راعِية الأغْنام ديان (Diane)، التّي كانت تعْتقِدُ أن سيلفاندر (Silvandre) تخلّى عنْها، إلى ضِفاف نهْر لينيون (Lignon) لِتُناشِدَ الحِكْمة: « وهكذا، قالتْ، ستصُبُّ كلّ الأشْياء الفانِية في حُضْن النِّسْيان.» فأمام هذا النّهْر الذّي يتبدّلُ باستِمْرار، أدْركتْ ديان التّحوُلات التي حلّتْ بها: « أنا نفْسي، لسْتُ ديان التّي كانتْ منْ قبل، عِنْد مجيئي إلى هنا... شاهِدي نفْسِك عنْدما سيشْرعُ، لِلأسف، سيلفاندر بالنّظر إليْكِ، ماذا صنَع بكِ حُبُّه، وكيْف ستُصْبحين الآن بعْد خِيانتِه لكِ، وسَلّمي بشِدّة أنَّ البعْض، كما يقولون، يُغيّرون مِنْ أمْزِجتهم وجِبِلّتِهم من سبْعة أعْوامٍ في سبْعةِ أعوام، تغيّرتْ فيكِ السِّنين ليْس فقطْ إلى أشْهُر، بلْ إلى ساعاتٍ، وحتّى إلى لحظات.» فلماذا إذاً إلْقاءُ اللّوْم على الحبيب المُتقلّب، أو الذي يُفْترضُ أنْ يكونَ كذلِك؟ « لا تَبْدينَ منْطِقيّة، عِنْد مُلاحظةِ ذلك فيكِ (قانون التغَيُّر) ثُمّ لا تُريدينَ لِشخْصٍ آخرَ أنْ يحْذُوَ حذْوكِ !» فالأمرُ يُشبهُ تقلُّبَ هيلاس (12) (Hilas)، بحسب الطبيعة، ولا يمْكنُ تخيُّل العاشِق في صورةِ الكمال إلاّ عنْد التصوُّر الصوّفي، أيْ ذلك يعْني اجْتِثاثاً خارِقاً للطّبيعة البشريّة. يُعْتبرُ مبدأُ الثبات في حدّ ذاته مُعْجِزة، وهكذا إذاً، وصفَ سبوند (13) (Sponde) حبّهُ كنجمة الشّمال، التي تُمثّلُ النُقْطة الثّابتة الوحيدة وسطَ حركة الكوْن، والتّي تجِدُ، بشكْلٍ بُطوليٍّ:

ثباتَها وسطَ هذا الطّيْش(14).

Sa constance au milieu de ces légèretés.

إنّ الخِيانة في الحُب، وخيانةُ الآخرين، ليْست سِوى مظْهر. ومبْدأُ « الطيْش» لدى الباروك يدُلُّ على خِيانة الذّات نفْسها، فقبْل كوْنِها سُلوكاً معيشاً، تكونُ هذهِ الخِيانة قدراً ومصيرا مُتحمّلاً. كما يُشكّل الوُجودُ تدفّقاً للسنوات، للسّاعات واللّحظات، فإنّ الأنا يشكّل كذلِك تتابُعاً وتسلْسُلاً للأحْوال المُتقلّبة والغيْر مُسْتقرّة، حيثُ ليْس هناك ما هُو ثابتٌ، حتّى عدمُ الاستِقْرار نفْسه (وهِي مُفارقة لا مفرّ مِنها بالنِّسْبة للْبلاغة لدى عصْر الباروك). فالنّشْوة، سواءٌ كانتْ في الرّومانسيّة أو في التصوُّف، ما هي إلّا غشَيان في غايةِ في العَظمَة، ما هي إلاّ سُلوانٌ نقِيّ. والوُجودُ، بالأحْرى، لا يُشْعَرُ بهِ إلاّ عبْر الارتِشاح، عبرَ ما يُطلقُ عليْه ميشيل دي مونتين (Michel de Montaigne) إسْم الاخْتِراق. فالشّخْص الذي يعْرِفُ ذاتَه، هُو ذلكَ الشّخْص الذي يسْعى للبحْثِ عنْها دون أنْ يجِدها، هو الشخْص الذّي يتفانى بكلّ وفاءٍ أثناء سعْيه الحثيث في عملية البحْث.

هُو ذلِكم الدّرس الذي همسَ بهِ نهرُ لينيون إلى ديان، وإلى غيْرِها. فلنْ يتمكّن سيلادون (15) (Céladon) ذاتَهُ من تحْقيقِ مصيرهِ كعاشقٍ مِثاليّ إلى حدّ الكمالِ إلّا عن طريق بلاءٍ مائيّ، يكونُ للتّصوفِ فيه معْنىً شفّاف: كالتفْكير في الغوْص، الموْت الرّمْزي، المعْمودِيّة (16) والانْبعاث. إنّ المكان المُناسِب للإنْسان يكونُ دائماً على الضِّفة الأُخْرى، أيْ في العالَمِ الآخَر. هُنا، لا تمْنحُ المِرآةُ المائيّة إلا صورةً مُرْتشحةً لحياةٍ عابرةٍ، لِمَنْ أرادَ أنْ يكونَ لهُ الأمْرُ كذلك.

وبالتّالي، فالشّيئُ الذي اكْتشفهُ نركسوس على حافّة نافورتِه، لا يضعُ في الحُسْبان مجرّد مظاهِر: لأنّ مكانَ صورتِه، منحَهُ كلِمةَ كيانِه. إذْ ينْتقِلُ تدْريجيّا من الصِّيغة: أرى نفْسي في الماء المُتدفّق إلى الصيغة: أنا الماء المُتدفّق. وهو ما يُشكّل الموضوع الأساسي والجوْهريّ الذي يُميّزُ هذا القرْن كرمْزٍ منْ رُموز الحساسيّة لدى الباروك. مُنذُ مونتين (« إذا ما سخِرْتَ بتفْكيركَ مُعْتقداً الاسْتيلاء على كيانِها بواسِطة المال، فذلِك لا يكونُ لا أكْثرَ ولا أقلَّ ممّنْ يعْتقِدُ أنّهُ أمْسكَ بالماء ») وُصولاً

إلى فرانسوا فنلون (François Fénelon) (« مـنْ أكـون؟ شـخصٌ لا قيمـةَ لـهُ، لا يمْتلِكُ حتّى القُدْرة على التوقُّف بذاتِه وليْسَ لديْهِ أيُّ اتِساقٍ، يتدفّقُ بسرعةٍ مِثْل الماء»).

إنّ سُلوكَ نرْكسوس الباروك ليْس بالضرورةِ سلوكاً فريداً من نوْعِه: بلْ وعلى العكْس، كما هو الشأْن في مُتنزّه العاشقيْن (Le Promenoir des Deux Amants)، يبْدو غالِباً سلوكاً مُشْتركاً، سُلوكا مُعقّداً كذلك عن طريق تفاعُل النَّظرات الانْعِكاسيّة. لكنْ وقبْلَ كلّ شيْئ، فهذا السّلوكُ لا يخْتصُّ به الإنْسانُ وحْده، بلْ يمْتدّ إلى كائناتٍ أخْرى في شكْل أقلُّ تقْليدٍ منْهُ عن الشُموليّة. وهكذا، فقد كانَ أيلُ تيوفيل دي فيو (Théophile de Viau)

(وهُو) مُحْنٍ عيْنيهِ داخِل جدْولٍ
يتسلّى بالنّظر إلى ظلّهِ (17)!

Penchant ses yeux dans un ruisseau

S'amuse à regarder son ombre.

لقدْ تطرّقْنا سالِفاً إلى نفْس السلوك بالنّسبة إلى شمْسِ سانت آمون (18) وتريستان. وهذا أيْضاً، لدى تريستان، مُحادثة عبْر المِرآة بينَ آلِهة ثانوِيّة:

في هذا المكان، إثْنيْن مِنْ مُضيفي السّماء (إلاهيْنِ)
يتَحاكيانِ أُحْجِيات سِرّية،
(و) إذاما كانا يرْتدِيانِ مِنْ فساتين سيتير (19)،
(فَهُما) ليْسا إلّا حبيبيْنِ يتلاطفانِ نَظرات الأعْيُن (20).

En ce lieu deux hôtes des Cieux

Se content un secret mystère،

Si، revêtus des robes de Cythère،

Ce ne sont deux Amours qui se font les doux yeux.

وفي نهاية المطاف، فإنّ الكوْنَ كُلّه يتأمّلُ ذاته وهو مُنْشطِرٌ إلى شقَّيْن، على حدّ تسْمِية باشلار، النرجسيّة الكوْنيّة. وفي نفسِ السِياق (21)، كتبَ جان روسيه (Jean Rousset) أنّ واجهة عصْرِ الباروك تُشكّلُ انْعِكاساً لِواجهة عصْر النّهْضة. نسْتطيعُ، بلا أدْنى شك، توْسيعَ هذا الطّرْح: فرُبما رجُلُ الباروك، وعالَمُ الباروك، ليْساَ أكثْر مِن انْعِكاسِهما على الماء. وصورة نرْكسوس، هِي المكانُ المُميزُ حيثُ يأْتي الوُجودُ الكوْنيّ لِكيْ يتّخِذَ، لِكيْ يفْقِدَ وأخيراً لِكيْ يسْتعيدَ وعْيهُ: يتأمّلُ نركسوس في نافورتِهِ نرْكسوس آخر، الذي هو أكثرُ نرْجسيّة مِن ذاتهِ، وتُمثلُ هذه الذات الأخرى، مهْوًى في حدّ ذاتِها. إنّ افْتِتان نركسوس بذاته ذو نمطٍ فِكْريّ وذهْني، وليْس شَبقي، وعلى كلّ حال، فإنّ ذلك لا يؤدّي بهِ إلى الانْقِياد. لمْ يعِشْ نركسوس ذلك المهْوى بلْ نطقهُ، وانْتصرَ بروحِه على كلّ صُور الغرق الجميلة. يرْمُزُ سُلوكُه إلى ما يمكنُ أن نُطلقَ عليهِ جيّداً إسم الإحْساس، أو بالأحْرى، تصوُّر الباروك للوُجود، الذي ما هُو إلّا دُوار، ولكِن دُوارٌ واعي، وإذا جازَ التعْبير، مُنظّم.

الهوامش

01. يصِفُ ستيفان مالارميه Stéphane Mallarmé، في هذا البيْت، هيروديا وهي تنظرُ إلى صُورتِها عبْر النافورة التّي تجمّد ماؤُها، سائلتاً خادِمتها ما إذا كانت تبْدو جميلة. هيروديا، وكما ترْوي القِصّة في إنْجيل متى (14: 3- 10) وإنْجيل مرقسْ (6: 17)، هي امْرأة يهوديّة تسبّبت في قتْل النبيّ يوحنا المعمدان؛ استْوحى الشّاعر الفرنسي مالارميه هذه القِصّة لكيْ يصِف ابْتهال هيروديا إلى المِرْآة الجليدية، وهي تُشاهِدُ عُرْيها وتجرّدها عبْر تِلْك المِرْآة.

02. في كتابه Les Sosies (1638): (والذي معْناهُ الشّخْصُ الذي يُشْبهُ، لا سِيما في ملامِح الوجْه، إلى حدّ الكمال شخْصاً آخر، غالِباً ما يكونُ مشْهوراً؛ وقدْ تنْجُم عن هذا الشّبه عمليّة احْتِيال، عن طريق انْتِحال شخْصية الشبيه لشخْصية المُشبّه به) ينْقُلُ لنا الكاتِب جان روترو Jean Rotrou، في أسْلوبٍ كوميدي، مشْهدَ ازْدِواج الشّخْصيات، عبْرَ ما ترْويهِ القِصّة في الأساطير الرومانية، أنّهُ، وعِنْد خُروج القائِد والحاكِم أمفيتريون Amphitryon لِلثّأرِ لِمقْتلِ اخْوتِه السّبْعة، قامَ جوبيتر Jupiter، ملِكُ الآلِهة، بالتّنكُرِ في صورتِه، أيْ صورة أمفيتريون، لِكيْ يُمْضِي تِلْك اللّيْلة برفقة ألكمينه Alcmène، زوْجة هذا الأخير. في القصّة أيضاً، تُشيرُ كلِمة Sosie إلى إسمِ نادِل أمفيتريون، الذي يُفترضُ أن يخْرُج برِفْقة سيّده للْحرْب، إلا أن الإله مركور Mercure، الإله الحامي للتُّجار والتِّجارة عِنْد قُدماء الرومان، قام هُو الآخر بدوْره في انْتِحال صورة Sosie الحقيقي، لكي يُداري على الإله جوبتر فِعْلته تِلْك اللّيْلة.

03. Les Sosies، الفصْل 5، المشْهد 4.

04. Tristan l'Hermite، (1638). Les Amours de Tristan. *Le miroirenchanté*. 94/djvu. Paris :Bilaine et Courbé.

05. Les Sosies، الفصْل 6، المشْهد 4.

06. Tristan، *Le miroir enchanté*.

07. اليشْبُ هُو نوْعٌ من الأحْجارِ الكريمة، غالِباً ما تكونُ خضْراء اللّوْن، تُسْتعْملُ للزّينة وجلْبِ الحظ.

08. Tristan، *La Mer*.

09. المعنى المُراد توظيفه هُنا إسْم الفاعِل سالِباً، هو معْنى مزْدوج: 1. سالِباً: سلبَ الانْعِكاسُ صورة نركسوس، أيْ أخْفاها عنْهُ وحجبها؛ 2. سالِباً: سلبَ الانْعِكاسُ ذاتَ نركسوس، أيْ سرقَ منهُ روحَهُ واخْتلسها.

10. الأَسَلُ، نباتٌ ذو أغْصانٍ كثيرة شائِكة الأطْراف من الفصيلة الأسَليّة، ينْبت في الماء وفي الأرْضِ الرّطبة، وتُصْنعُ منْه الحُصرُ والحِبال.

11. L'Astrée: عبارة عن رواية الرعوية، تمّ نشْرُها منْ طرف هونوري دورف Honoré d'Urfé بين عامي 1607 ـ 1627، يُعْتبرُ هذا الإنْجاز من بين أكْبر الأعْمال الأدبيّة للقرْن السّابع عشر، يُطْلقُ عليْه في بعْض الأحْيان إسم « رِواية الروايات »، من حيثُ حجْمِه أولاً، إذ يمثّل الملْحمة الأولى في الأدب الفرنسي، وهُو يتشكّلُ من 5 أجزاء، في كلّ جزْء 12 كِتاباً، 40 قصّة، 5399 صفْحة، ولكِن أيْضاً من حيْث النّجاح الكبير الذي أحْرزهُ في كامِل أوربا.

12. تُشيرُ الميثولوجيا الكلاسيكيّة أنّ هيلاس، كان شاباً، وقد شغلَ منْصب رفيق وحبيب لهرقل (بطل إلاهي). شكّلَ اخْتِطافه على يد حوريات الماء موضوعاً في الفنّ القديم. تذْكُر القصّة أنّه أثْناء مُغامرة من مُغامراته، خرج هرقل برفقة هيلاس للمُشاركة في مُنافسة التجْديف؛ وعِنْدما ذهبَ هرقل لاقْتِلاع جِذْع شجرة، لِكيْ يصْنعَ منْه مِجدافاً، قامت حوريات الماء باخْتطاف هيلاس وأخْذِه للعيْش معها. عند عوْدتِه، لمْ يجِد هرقل هيلاس، فثارَ إمْتِعاضاً وشرعَ في البحْثِ عنْهُ بمُساعدة بوليفيموس Polyphème وبعض المُغامرين؛ لكنْ، كلُّ ذلك كان بلا جدْوى؛ إذ أنه، وخوْفاً منْ غضبِ هرقل، قامت الحوريات بتحْويل هيلاس إلى صدًى، فكُلّما نادى هرقل ورِفاقه على هيلاس، لمْ يسمعوا سِوى صدى هذا الأخير؛ ومُنْذ ذلِك الحين، أصْبح الصدى يُجيبُ المُناديَ، مكانَ الغائِب.

13. جان دي سبوند Jean de Sponde، شاعر الباسك، لعصْر الباروك الفرنسي، وُلد سنة 1557 وتوفي ببوردو سنة 1595. تناولَ سبوند في أعْماله المواضيعَ الرئيسيّة للأدب الباروك: كالخوف مِن التقلُّب، الأقْنِعة، المظهر والموْت. مُقارنة بالحياة، يُمثّل الموتُ لدى سبوند رِحْلة الطُموح إلى العالم الآخر، الشيْئ الذي يخلُقُ الحاجة إلى نداء اللّه. تسْعى كِتاباتُ سبوند إلى رسْم سُمْك العالَم، مُضاعفات مصير الإنْسان وغُموضِه. تنجُم هذه الحساسيّة المُعبّرِ عنها في عصْر الباروك من جراء البحْث عن التوازُن.

14. Jean de Sponde. (1597). *Sonnets d'Amour*. I.

15. سيلادون هو بطل قِصّة L'Astrée للكاتِب هونوري دورف، وهو عشيقُ ديان.

16. المعْمودِيّة (عند النصارى): أَن يَغْمِسَ القَسُّ الطِّفلَ في ماء يتلو عليه بعضَ فِقَرٍ من الإنجيل، وهو آية التنصير عندهم.

17. **العُزلة** (La Soliture).

18. ولنتذكّر هذِه الأبْيات لِـ **موسى المُنقَذ** (Moyse sauvé) :

(فَـ) تُرى السماءُ، (و) يَلفُ نجمُ اليوم،
(يُصبِحُ النّخيل) مُعجباً، (مُشاهِداً نفْسهُ وهُو) يَسطعُ عبَر تلك المرآة المُتدفِقة،

Le firmament s'y voit، l'astre du jour y roule

Il s'admire، il éclate en ce miroir qui coule

19. سيتير (Cythère) : عبارة عنْ جزيرة في اليونان، وهي أخّاذة المناظِر. يحُدّها مِن الشرق بحْرُ إيجة، ومن الغرْب، البحْر الأبْيض المُتوسط.

20. Tristan، *Le miroir enchanté*.

21. Jean Rousset، (1953). *La littérature de l'âge baroque en France*، p. 157، Paris : José Corti.